﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

[آل عمران: 159]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا انهزمَ القومُ عنِ النّبيّ ﷺ يومَ أُحدٍ، ثمّ عادوا، لم يخاطبهم الرّسول ﷺ بالتّغليظ والتّشديد، وإنّما خاطبهم بالكلام اللّين، ثمّ لَمَّا أرشدهم سبحانه في الآيات المُتقدِّمة إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم - وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم - زاد في الفضل والإحسان بأن مَدَحَ الرّسولَ ﷺ على عفوه عنهم، وتركِه التّغليظ عليهم[1].

وبَعْدَ الفراغِ من وعظ الصّحابة - رضي الله تعالى عنهم - أتبعه تحبيبَ النّبيِّ ﷺ فيما فعل بهم من الرّفق واللّين، مع ما سبَّبَ الغضب المُوجِب للعنف والسّطوة من اعتراض من اعترض على ما أشار به، ثمّ مخالفتهم لأمره في حفظ المركز، والصّبر، والتّقوى، وغير ذلك من الأمور الّتي تُوجِب الغضبَ وإيقاع بعضهم ببعضٍ؛ ليكون ذلك زاجرًا لهم عن العود إلى مثله[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِنتَ﴾: اللّام والياء والنُّون كلمةٌ واحدةٌ، وهي اللِّينُ: ضدُّ الخشونة. ويُقالُ: هو في لَيَانٍ مِن عَيشٍ، أَي: نَعمَةٍ، وفلانٌ مَلِينَةٌ، أَي: لَيِّنُ الجانبِ[3]. واللِّيان بالكسر: المُلايَنَة والملاطَفة[4]. ويُستعمل اللّين في الأجسام، ثم يُستعار للخُلُق وغيره من المعاني، فيُقال: فلانٌ لَيِّن، وفلانٌ خَشِنٌ، وكلّ واحدٍ منهما يُمدَح به طَورًا، ويُذمّ به طَورًا بحسب اختلاف

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/405.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/106.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لين).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (لين).

المَواقِع[1]. واللّين حسن الخُلق، وحسن الكلام بالصَّفو والزّلال[2]. والسّهولة والسّكون والوقار والخشوع[3]. وكلُّ ما في القرآن من اللّين فهو من المرونة ضدّ القساوة والصّلابة[4].

2) ﴿فَظًّا﴾: الفاءُ والظَّاءُ كلمةٌ تدُلُّ على كراهةٍ وتكرُّهٍ. والرّجل الفظُّ: الكريه الخُلُق[5] الّذي فيه غِلَظٌ في مَنطقه وتَجَهُّمٌ، والفَظَظُ خُشونةٌ في الكلام. والفَظُّ: ماءُ الكَرِش، ومن عادة العرب إذا اضطَرّت شَقُّوا الكَرِش وشَربوا منها الماءَ[6]. وذلك مكروه شربُه لا يُتناول إلّا في أشدّ ضرورة[7]. والفَظُّ: الرّجلُ الغليظُ[8]. والفَظُّ: السَّيِّئ الخُلق، الجافي الطَّبع[9]. وفلان أفظّ من فلان: أي: أصعب خلقًا وأشرس. وكان النّبيّ ﷺ رؤوفًا رحيمًا، كما وصفه الله تعالى، رفيقًا بأمّته في التّبليغ، وصفتُه في التوراة: "لستَ بِفَظٍّ ولا غليظٍ، ولا سَخّابٍ بالأسواقِ"[10].

3) ﴿غَلِيظَ﴾: الغِلظَة ضدُّ الرّقة، ويُقال: غِلظة وغُلظةٌ، وأصله أن يُستعملَ في الأجسام لكن قد يُستعارُ للمعاني، والغِلظة: الخشونة[11]. وغِلَظُ القلب: عبارة عن قلّة الرَّحمة، وبإزائه رقّة القلب[12]. والغِلظَة: الشّدّة البالغة مع الحدّة[13]. والغليظ: القاسي القلب[14].

4) ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾: "الفاء والضّاد أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تفريقٍ وتَجزِئةٍ. مِن ذلك: فَضَضتُ الشَّيءَ، إذا فَرَّقتَهُ"[15]. فالفضُّ: تفريقُك حَلقَةً من الناس بعدَ اجتِماع[16]. وهو:

(1) الرّاغب، المفردات: (لين).
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/948.
(3) ابن الأثير، النّهاية: (لين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لون - لين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فظ).
(6) الخليل، العين: (فظ).
(7) الرّاغب، المفردات: (فظ).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (فظظ).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(10) رواه البخاري في صحيح، الحديث رقم: (2125)، وأحمد في المسند، الحديث رقم: (6622)، ومعنى: (ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ)، أي: لا يَرفَعُ صَوتَه على النَّاسِ في الأسواق لسُوءِ خُلُقِه، ولا يُكبِّرُ الصِّياحَ عليهم، بل يُلينُ جانِبَه لهم ويَرفُقُ بهم.
(11) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(12) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/949.
(13) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلظ).
(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فض).
(16) الخليل، العين: (فض).

الكَسرُ بالتّفرقة[1]. فالانفضاض: التّفرق، ويُقال: انفضَّ اعتبارًا بانكسار بعضهم عن بعض[2]. ومعنى الانفضاض في الآية الكريمة: التّفرق[3].

5) ﴿حَوْلِكَ﴾: "الحاء والواو واللّام أَصلٌ واحدٌ، وهو تَحَرُّكٌ في دَورٍ"[4]. وحوالَي الدّار: جانِبَيه[5]. وجانبه الّذي يمكنه أن يُحوَّل إليه[6]، فهو الظّرف الّذي يعبر عن المنطقة المحيطة بجوانب الشّيء واتّجاهاته، أي: مجال تحوّله[7]. ويجوز أن يكون معنى ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾، أي: من جهتك وإزائك[8].

6) ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾: الشِّين والواو والرَّاء أَصلان مُطَّردان، أحدهما أَخذُ شَيءٍ. مِن هذا الباب شاوَرتُ فُلانًا في أَمري. قال: وهو مُشتقٌّ مِن شَورِ العسلِ، فكأَنَّ المُستَشيرَ يَأخُذُ الرَّأْيَ مِن غيرِه[9]. فالتّشاور والمُشاورة والمَشورة: استخراج الرّأي بمراجعة بعض إلى بعض، والشُّورى: الأمر الّذي يُتشاور فيه[10]. والمُشاورة: استخراج صائب الرّأي من الغير[11]. وإنّما تكون في الأمر المهمّ المُشكِل من شؤون المرء في نفسه أو شؤون القبيلة أو شؤون الأمّة[12].

7) ﴿عَزَمْتَ﴾: العينُ والزَّاءُ والميمُ أَصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدُلُّ على الصَّريمة والقَطع. يُقالُ: عَزَمتُ عليك إلَّا فعلتَ كذا، أَي: جَعَلتُه أَمرًا عَزمًا، أَي: لا مَثنَوِيَّةَ فيه. العَزمُ: ما عَقدَ عليه القلبُ أَنَّكَ فاعلُهُ، أو من أمرٍ تيقّنتَهُ. والعزيمة الثّبات على أمر يَعزِم عليه، ويُقالُ: ما لِفلانٍ عَزِيمةٌ، أَي: ما يَعزِمُ عليه، كأَنَّه لا يُمكِنُهُ أَن يَصرِمَ الأَمرَ، بل يَختَلِطُ فيه ويَتَرَدَّدُ[13].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (فضض)
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/949.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَوَلَ).
(5) الخليل، العين: (حول).
(6) الرّاغب، المفردات: (حول).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حول).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شَوْرَ).
(10) الرّاغب، المفردات: (شور).
(11) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/949.
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.
(13) الخليل، العين (عزم)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عَزَمَ).

وهو عقد القلب على إمضاء الأمر[1]. وثباتُ الرّأي عليه، نحو إجماع الرّأي[2]. وهو: الجدُّ، والقوّة، والصَّبر[3]. واستمرار الشّدّة والجِدّ فيما عُقِد عليه قلبك من أمر، فعَزَم على الأمر وعَزَمه: أراد فعله إرادةً جادَّةً دائمةً[4].

8) ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ ﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾: الواو والكاف واللّام أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على اعتِماد غيرِك في أمرِك. والتّوكّلُ منه، وهو: إظهار العجز في الأمر، والاعتماد على غيرك، وتجعله نائبًا عنك، وتصرِّفُ الأمر إليه، وتسلِّمهُ وتتركه[5]، ومنه: الوكيلُ: الحافظُ، والكفيل، والمتوكّلُ على الله يعلم أنّه كافلُ رزقه، وأمره؛ فاطمأنَّ قلبه على ذلك، ولم يوكِل أمرَهُ إلى غيره[6]. فالتّوكّل على الله: اعتمادُ القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه، ودنياه، ودفعِ ما يضرُّه في دينه، ودنياه، مع الأخذ بالأسباب المشروعة[7]، وهي معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صفات القيادة الدينية ومقتضياتها

فبرحمة من الله لك ولأصحابك - أيها النبيُّ - منَّ الله عليك فكنت رفيقًا بهم، ولِنْتَ لهم؛ فسَهُلت لهم وحَسُنت لهم أخلاقك، حتّى احتملتَ أذى من نالك منهم أذاه، وعفوتَ عن ذي الجُرم منهم جُرمَه، وأغضيتَ عن كثير ممَّن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركَكَ، ففارقكَ ولم يتَّبعْكَ، ولا ما بُعثتَ به من الرّحمة، ولكنّ الله رحمهم ورحمك معهم[8].

ففي الآية تقريعٌ لجميع من أخلَّ بمركزه يوم أُحُد، فاستحقّوا الملام منك، والأصل أن لا تلين لهم، ولكن رحم الله جميعكم، أنت

(1) الرّاغب، المفردات: (عزم).
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/950.
(3) ابن الأثير، النّهاية: (عزم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عزم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (وَكَلَ).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وَكَلَ).
(7) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 8/177، وابن القيم، مدارج السالكين: 3/523.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 7/341، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 71.

- أيها النبيُّ - بأن جعلك الله على خُلقٍ عظيم، وبعثك لتُتَمِّمَ محاسنَ الأخلاق، وهم بأنْ ليّنك لهم، وجُعِلت بهذه الصّفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم، وأنّك لو كُنتَ فَظًّا غَليظَ القلب لانفضُّوا مِن حولك، وتفرّقوا عنك، فلا تؤاخذهم بما كان منهم في غزوة (أُحد)، واسأل الله - أيها النبي ﷺ - أن يغفر لهم[1].

فإذا عزمْتَ - بعد المشاورة - على أمرٍ، واطمأنَّت به نفسك فتوكّل على الله في الإعانة على إمضاء ما عزمت، لا على المشورة وأصحابها؛ إنَّ الله يحب المتوكِّلين عليه.

وترشدُ الآية الكريمة إلى وجوب التَّمسك بمكارم الأخلاق، وخصوصًا لمن يدعو إلى الله تعالى، ويأمرُ بالمعروف، فالأخلاقُ الحسنةُ من الرئيس في الدِّين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغِّبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثَّواب الخاص، والأخلاقُ السيئةُ من الرئيس في الدِّين تنفِّر الناس عن الدِّين، وتبغِّضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذَّم والعقابِ الخاصِّ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الانتقالِ من خطابِ المؤمنين إلى خطابِ الرَّسولِ:

الأخـــلاقُ هي أصـــلُ بـنـاءِ المجتمعِ، وقد تعدلُ الجهادَ في سبيلِ الله

قولُه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ التفاتٌ عن خطاب المؤمنين إلى خطاب النّبيّ ﷺ فيما يتعلّق بمعاملته إياهم[3]، وفي هذا الانتقال في الخطاب تنبيهٌ لمكانة الرّسول ﷺ، وتشريفٌ له، وتنزيهه عن سوءِ الخصالِ، وجفوةِ الطِّباع، فضلًا عن تقرير مبدأ المشاورة، وتحقيق فعل التّوكّل، وهما من الأسس المهمّة في بناء الدّولة النّاشئة، وتسيير أمورها؛ وبيانُ ذلك موجبٌ الالتفاتَ في الخطابِ لمبلغ أهمّيّته، ولولا الأخلاقُ النَّبويَّة لما كانت هناك دولةٌ إسلاميَّة، ولا رايةٌ دعويَّة، ولا حملةٌ جهاديَّة.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/533.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/448، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71.
(3) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 4/163.

دلالة حرف الفاء:

التّفريع على الكلام السّابق تحقيقٌ لأسباب العفو

خصّص ابنُ عاشور معناها بالتَّفريع على ما اشتمل عليه الكلام السّابق من عفو الله تعالى، ولمّا كان عفو الله عنهم يُعرف في معاملة الرّسول إيّاهم أَلَانَ الله لهم الرَّسول تحقيقًا لرحمته وعفوه، فكان المعنى: ولقد عفا الله عنهم برحمته فلانَ لهم الرّسول بإذن الله، وتكوينه إيّاه راحمًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107][1].

دلالة حرف الباء:

مصاحبةُ اللّينِ لرحمةِ الله تعالى

الباء في قولِه: ﴿فَبِمَا﴾ للمصاحبة، أي: لنتَ مع رحمة الله؛ إذ كان لينُه في ذلك كلِّه لينًا لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراة لهم في التَّساهل في أمر الدِّين، فلذلك كان حقيقًا باسم الرّحمة[2].

بلاغة تقديم متعلّقاتِ الفعلِ:

قصر الرّحمة عليه تعالى

تقديم ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ﴾ و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مفيدٌ للقصر، والحصر الإضافيّ، أي: برحمةٍ من الله لا بغير ذلك من أحوالهم[3].

التّعريض فائدة من فوائد القصر

وذلك أنَّ أحوالهم كانت مستوجبةً الغلظ عليهم، ولكنَّ الله أَلَانَ خُلُقَ رسولِه رحمةً بهم، لحكمة علمها الله في سياسة هذه الأمّة[4].

بلاغةُ ذكرِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا﴾:

أفادت (ما) التّوكيدَ، والحصرَ، وحسنَ النَّظمِ، والإبهامَ، واحتمال الاستفهام

لذكرِ (ما) بعد باء الجرّ فوائدُ عدَّة منها:

أوَّلًا: تأكيدُ الجملةِ بما فيه من القصر، فتعيّن بذكرِها كون التّقديم للحصر، لا لمجرّد الاهتمام[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.

ثانيًا: حسنُ النَّظم، وتمكينٌ للكلام في النّفس، وبُعدٌ به عن الألفاظ المبتذَلَة[1]، فدخولُها لتزيين اللّفظ وزيادة فصاحته[2].

ثالثًا: إبهاميّة تُعطي معنى التّنكير في (مثل)، وتزيد في شيوعه، وتؤكّد مضمون الجملة[3]، فوجه تأكيده أنّه نكرة تدلُّ على إبهام ما عُلِّق به، وإبهامه يقتضي التَّعجّب، فكأنّه بعظيم من رحمته ﴿لِنتَ لَهُمۡ﴾[4].

رابعًا: جواز أن تكون (ما) استفهامًا للتّعجّب تقديره: فبأيّ رحمة من الله لِنْتَ لهم؟ وذلك أنّه لمّا لم يُظهر ﷺ تغليظًا في القول، ولا خشونة في الكلام مع عِظَم جنايتهم؛ علموا أنّ هذا لا يتأتّى إلّا بتأييد ربّانيّ وتسديد إلهيّ، فكان ذلك مَوضِع التّعجّب من كمال ذلك التّأييد والتّسديد، فقيل: فبأيّ رحمة من الله لنت لهم[5].

تعظيم خصلة الرّحمة، والمبالغة في تحقّقها

غرضُ التّنوينِ في لفظ ﴿رَحۡمَةٍ﴾:

كلمةُ ﴿رَحۡمَةٍ﴾ بدلٌ من (ما) مُبيّنٌ لإبهامِها، وتنوينُها للتّعظيم والتّفخيم، والمعنى: أنّ لِينَه هذا لهم الخارق للعادة ما كان إلّا بسبب الرّحمة العظيمة منه[6].

تقديرُ صفةِ الرَّحمةِ المحذوفةِ:

الرَّحمةُ عظيمةٌ في بينتِها وآثارِها

حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾ لابتداء الغاية مُتعلّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لرحمةٍ، أي: فبرحمةٍ عظيمةٍ لهم كائنةٍ من الله تعالى، وهي ربطُه على جأشه، وتخصيصُه بمكارم الأخلاق، ولين الجانبِ لهم، ومعامَلتهم بالرّفق، والتّلطّف بهم[7].

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/432، وابن سنان الخفاجي، سرُّ الفصاحة: 1/156.
(2) السُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/152.
(3) الطيبيّ، فتوح الغيب: 4/321، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/151.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/948.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/406 - 407، واعترض بعض المفسّرين على توجيه الرّازي، يُنظر: أبو حيّان، البحر المحيط.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105، والشّوكانّي، فتح القدير: 1/451، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 2/446.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105.

واكتفى بالمذكور حاذفًا الصّفة للدّلالة على قربه منه ﷺ، ودنوّ رحمته، فلا واسطة بينها وبينه تبارك وتعالى.

دلالة التّعبير عن اللّين مجازًا:

سعة الخلق، والصّفح، وإقالة العثرات

صفةُ اللّين في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ مجازٌ في سَعَةِ الخُلُقِ مع أمّة الدّعوة والمسلمين، وفي الصّفح عن جفاء المشركين، وإقالة العثرات[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالماضي لإثبات تقرّر وصفِ اللّين في خُلُقه:

دلَّت صيغةُ الماضي في قوله: ﴿لِنتَ﴾ على أنّ ذلك وصفٌ تقرّر وعُرِفَ من خلقه، وأنّ فطرته على ذلك برحمة من الله إذ خلقه كذلك ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124][2].

موقعُ ذكرِ الرَّحمةِ من خُلُقِ اللّين:

الرَّحمةُ سببُ اللّين في معاملةِ مَن أُنزلت عليهم الرّسالة

أرسل الله نبيّنا محمدًا ﷺ مفطورًا على الرّحمة، وجعل لِينَه مصاحبًا لرحمة من الله أودعها الله فيه، لكونه بُعث للنّاس كافّة، مع أنَّ دعوته اختُصّت بالعرب بادئَ الأمرِ، والعربُ أمّة عُرِفَت بالأنفة، وإباء الضّيم، وسلامة الفطرة، وسرعة الفهم، وهم المُتَلَقّون الأوّلون للدّين فلم تكن تليق بهم الشّدّة والغلظة[3]؛ فقُدّمت الرّحمة؛ لكونها سببًا في اللّين.

عَوْدُ الضّمير في (لهم) على جميع الأمّة:

ضمير (لهم) في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ عائدٌ على جميع الأمّة، كما هو مُقتضى مقام التّشريع وسياسة الأمّة، وليس عائدًا على المسلمين الذين عصَوا أمر الرّسول يوم أُحد؛ لأنّه لا يُناسب قوله بعده: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾، إذ لا يُظنّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.

ذلك بالمسلمين، ولأنّه لا يُناسب قوله بعده: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، إذا كان المُراد المشاورة[1]؛ للاستعانة بآرائهم، بل المعنى: لو كنت فظًّا لَنَفَرَ منك كثير ممّن استجاب لك فهلكوا.

العَوْد على المنافقين

أو يكون الضّمير عائدًا على المنافقين المُعبَّر عنهم بقوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: 154]، فالمعنى: ولو كنت فظًّا لأعلنوا الكفر وتفرّقوا عنك، وليس المُراد أنّك لنت لهم في وقعة أُحُد خاصّة؛ لأنّ قوله بعده: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ينافي ذلك المَحمَل[2].

دلالة ﴿وَلَوْ﴾ في قولِه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾:

انتفاء الفضاضة، والغلظة عن النّبيّ ﷺ

يُثبتُ هذا النّصّ الكريم أنّ النّبيّ ﷺ ليس فظًّا ولا غليظًا ولا قاسيًا؛ لأنّ (لو) تدلُّ على نفي الجواب لنفي الشّرط، والمعنى أنّك لست فظًّا ولا غليظَ القلب، وهذا هو الّذي يتّفق مع صفات النّبوّة والقيادة الحكيمة الرّشيدة الهادية المُوجّهة إلى أمثل الطّرق الجامعة للقلوب[3].

المجازُ في لفظِ الغلظة:

الغليظ القلب: القَاسِي القلب؛ إذِ الغلظة مجاز عنِ القسوة وقلّة التّسامح، كما كان اللّين مجازًا في عكس ذلك[4].

فنُّ التّكميلِ في قولِه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾:

اجتماعُ الشّجاعة والرّفق من أندرِ الأخلاقِ العالية

أفاد قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في هذا المقام فائدتين كما يذكر الطّيبيّ: "إحداهما: ما يدلُّ على شجاعته ﷺ، والثّانية: ما يدلُّ على رفقه، فهو من باب التّكميل"[5]، وقال التّفتازانيّ: " إنّما جُعِل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1474.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(5) السُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/82.

الرّفق ولين الجانب مُسبّبًا عن ربط الجأش؛ لأنَّ من ملك نفسه عند الغضب كان كامل الشّجاعة"[1].

ومقامه ﷺ هو التّوسط بين الشّدّة واللّين؛ لقوله تعالى: ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾، ولم يقُل: فبما رحمة من الله كنت لينًا، أو كنت تلين، فليس هو في ذاته ليِّنًا، لكنّه يستعمل اللّين[2].

بلاغة التّشبيه في قولِه تعالى: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾:

فائدة التّشبيه الإيذان بأنَّ من حول النّبيّ ﷺ متّبعون له

الضّميرُ في قولِه: ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ راجعٌ إلى عمومِ الصَّحابةِ رضوان الله عليهم، أي: الذين دخلوا في الدّين لأنّهم لا يطيقون الشّدَّة، والكلام من التّشبيه التّمثيليّ: شُبِّهَت هيئة النّفور منه وكراهية الدّخول في دينه بالانفضاض من حوله، أي: الفرار عنه مُتفرّقين، وهو يؤذن بأنّهم حوله مُتَّبعون له[3].

علّة تقديم وصف الفظاظة على وصف الغلظة:

فظاظة الأبدانِ أوّل ما يقعُ في العين، وغلظةُ القلبِ خافية

نفتِ الآيةُ صفةَ الفظاظةِ أوّلًا، ثم أتبعتها بغِلَظِ القلبِ، إذِ الفظاظةُ تنشأُ عن القلب الغليظ؛ لتقديم ما هو ظاهرٌ للحسِّ على ما هو خافٍ يُعلَمُ بظهور أثَره، فالفظاظة: الجفوة قولًا وفعلًا، وهو أثر بيّن، وغِلَظ القلب: خلقٌ صلبٌ لا يلين ولا يتأثَّر، وهو وصفٌ خافٍ. فالوصفان متقاربان، ولشدّة ذلك قِيل: إنّهما بمعنى واحد، وجُمِعَا للتّأكيد[4].

وتوجيهٌ آخرُ: أن يكون من باب تقديمِ النتيجةِ على السَّببِ، ونكتةُ ذلك أنَّه إذا كانت النَّتائجُ منفيَّةً، فكذلك أسبابُها، فنُفيت الفظاظةُ أوّلًا، ثمَّ نُفيَ سببُها، ليُعلمَ أنَّه ليس فظًّا، ولا توجد عنده أسبابُ الفظاظة، وهذا غاية الكمالِ والجمال والجلالِ الأخلاقيّ.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/321، والسُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/82.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/436.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/104.

بلاغة الجملة القرآنيَّة في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ فنُّ التَّمثيل؛ لأنّ هذا القول خرج مَخرج المثل السّائر الّذي يتمثّل به النّاس للدّعوة إلى لين الجانب وحسن الكلام مع النّاس[1]، وفي ذلك ترسيخٌ للرّحمة واللّين منهجًا يُقتفى، وأسلوب حياة به يُحتفى في الرّياسة، والقيادة، والتّعامل مع النّاس.

الجملةُ القرآنيَّةُ تسري مثلًا أخلاقيًّا عاليًا

دلالة الفاء في ﴿فَٱعۡفُ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ تدلّ على التّعقيب، فهذا يدلّ على أنّه تعالى أوجب عليه أن يعفو عنهم في الحال، وهذا يدلّ على كمال الرّحمة الإلهيّة حيث عفا هو عنهم، ثمّ أوجب على رسوله أن يعفو في الحال عنهم[2].

أجملُ العفوِ ما كان سريعًا بدون مُهلةٍ

علّة التّفريع في قوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾:

التّفريع في قوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ على قوله: ﴿لِنتَ لَهُمۡۖ﴾؛ لأنّ جميع الأفعال المأمور بها مُناسبة للّين، فأمّا العفو والاستغفار فأمرهما ظاهر، وأمّا عطف ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾ فلأنّ الخروج إلى أُحد كان عن تشاور معهم وإشارتِهم، ويشمل هذا الضّمير جميع الّذين لَانَ لهم ﷺ، وهم أصحابه الّذين حوله سواء من صدر منهم أمر يوم أُحد أم غيرهم[3].

العفوُ تاجُ اللّينِ وثمرتُه الرَّاسخة

تقدير أن تكونَ الفاءُ للسّببيّة بتمهيد أنّه ليّن الجانب، وعلى الاتّصاف بأنّه على خلق عظيم[4]؛ فرتّبت الفاء ما بعدها على ما قبلها، أي: أنّه يترتّب على اتّصافك بالعفو والرّحمة والبشاشة،

الأمرُ بالعفو مُترتِّب على مضمون ما قبله

(1) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/202.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/408.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/436.

والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب أن تكون عفوًّا[1]، العفو في هذه الحال ليس للرّحمة فقط، بل هو للمصلحة أيضًا؛ لأنّه يشحذ العزائم، إذ هو يقيل من العثرة، ويرفع من الكبوة، وعندئذٍ تستقيم القلوب نحو الحقّ، كما قامتِ الأجسام بعد الوقوع[2].

فائدةُ التّعبير بصيغة ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾:

المشاورة مصدر شاور، وجاءت على صيغة المفاعلة الدّالّة على المشاركة، والمطاوعة بالاستجابة للأمر بذلك، فناسبت سياق ورودها، وعبّر عنها بصيغة الأمر؛ "للتّنبيه على أنّ ما سبيله الاجتهاد فحقُّه الاستعانة فيه بالآراء الكثيرة الصّحيحة، لينقدح منها الصّواب"[3]؛ ولذلك وجب اللّجوء إليها، والاستعانة بها؛ لكونها تُطلبُ في الأمر المهمّ المشكل من شؤون المرء في نفسه أو شؤون القبيلة أو شؤون الأمّة[4].

الأمـــــــورُ الاجتـهـاديَّـةُ تـحـسُـنُ فيها مشاركةُ الرَّأي؛ لاستـنـبـاطِ الأصوبِ

وفي أمرِه ﷺ بمشاورةِ أصحابِه تشريفٌ للصّحابة [5] رضي الله عنهم، فقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، يعني: في أمر الحرب ونحوه ممّا لم ينزل عليك فيه وحي؛ لتستظهر برأيهم، ولِمَا فيه من تطييب نفوسهم، والرّفع من أقدارهم[6].

مشاورةُ الصَّحبِ تشريفٌ وتطييبٌ للنُّفوس

تعيينُ مَرجِعِ الضّميرِ في لفظ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾:

ضمير الجمع في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ عائد على المسلمين خاصة: أي: شاور الذين أسلموا من بين من لنت لهم، أي: لا يصدّك خطل رأيهم فيما بدا منهم يوم أُحد عن أن تستعين برأيهم في مَواقِع أخرى، فإنّما كان ما حصل فلتة منهم، وعثرة قد أقَلتَهُم منها[7].

مشاورةُ المؤمنين تـعـزيـزُ خـاطـر وتسديدُ رأي

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1476.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1476.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/953.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146 - 147.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/953.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/432.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.

دلالة الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾:

دوران المعنى بين معنى الجنس، والعهد

الألف واللّام في لفظِ: ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ يدلُّ على الجنسِ على إرادة الأمر المهمّ الّذي يُؤتمر له، والعهد على إرادة أمر الحرب[1]؛ لكون الذي نزل فيه الوحي لا تجوز المشاورة فيه، فوجب حمل الألف واللّام هاهنا على المعهود السّابق في هذه الآية وهو ما يخصّ الحرب ولقاء العدوّ[2].

وأيًّا ما كان فظاهر لفظِ ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ أنّ المراد المشاورة الحقيقيّة الّتي يقصد منها الاستعانة برأي المستشارين بدليل قوله عقبه: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[3].

مراعاة حسن التّرتيب في الأوامر:

العفو النّبويُّ، وطلبُ المغفرةِ، هما أصل الصّلاح المُهيِّئ للمشاورةِ

بدأتِ الآيةُ ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ بالأمر بالعفو عنهم فيما يخصّه ﷺ مُسقِطًا لحقّه، ودالًّا على رضاه عليهم، وعدم مؤاخذته لهم، فإذا تحلَّوا بالعفوِ النَّبويِّ، جاء الأمر بالاستغفار لهم فيما كان للّه؛ ليكمل لهم صفحه، وصفح اللّه عنهم، فإذا صاروا في هذه الدّرجة، وزالت عنهم التّبعات من الجانبين صاروا أهلًا للاستشارة في الأمور إيذانًا بأنّهم أهل للمحبّة الصّادقة والخلّة النّاصحة، إذ لا يستشير الإنسان إلّا من كان معتقدًا فيه المودّة والعقل والتّجربة[4].

تقديرُ حذف مُتعلّق العزم:

في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ العزم: هو تصميم الرّأي على الفعل، وحَذَفَ مُتعلَّق ﴿عَزَمۡتَ﴾؛ لأنّه دلّ عليه التّفريع عن قوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، فالتّقدير: فإذا عزمت على الأمر[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/410.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/534، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/104، والآلوسّي، روح المعاني: 4/108.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/151.

بلاغة المجاز في لفظ التّوكّل:

مقتضى التَّوكُّلِ الشّروع في الفعل مع السّداد فيه

حقيقةُ التّوكّل الاعتماد، وفي قوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ مجازٌ في الشّروع في الفعل مع رجاء السّداد فيه من الله، وهو شأن أهل الإيمان، فالتّوكّل انفعال قلبيّ عقليّ يتوجّه به الفاعل إلى الله راجيًا الإعانة، ومستعيذًا من الخيبة والعوائق، وربّما رافقه قول لسانيّ؛ وهو الدّعاء بذلك[1].

بيان التّعبير عن فعلَيِ العزم، والتّوكّل:

الدّلالة على تأكيد حصولهما، وإنفاذ المشورة دون تأخّر

عبّر عن العزيمة بصيغة الماضي ﴿عَزَمْتَ﴾، ولم يقل: (فإن تعزم) مع كونه أنسبَ؛ للدّلالة على تأكيد حصولها في نفسه، وتحقّق حدوثها، وكأنّها واقعة مشاهدة، ويرسّخ ذلك التّعبير بـ (إذا) الشّرطيّة الدّالّة على المستقبل، والأمر ينطبق على فعل التّوكّل المُصاغ بفعل الأمر جوابًا لـ(إذا) تجسيدًا لسرعة تمثّل الفعل، والتّقدير عند ابن عاشور: فإذا عزمت فبادر، ولا تتأخّر، وتوكّل على الله؛ لأنّ للتّأخّر آفات، والتّردّد يضيّع الأوقات[2].

دلالة نسبة التّوكّل على الله تعالى:

التَّوكُّلِ على الله، احتراسٌ من مَظِنَّةِ الاعتمادِ على رأي المجموعِ

لمّا أمر بالمشاورة الّتي هي النَّظر في الأسباب أمر بالاعتصام بمسببها من غير التفات إليها ليكمل جهاد الإنسان بالملابسة ثمّ التّجرّد[3]؛ إذ لا يجب بعد حصول الرّأي المتأكّد بالمشورة أن يقع الاعتماد عليه، بل يجب أن يكون الاعتماد على إعانة الله، وتسديده، وعصمته، فليس للعبد اعتمادٌ على غير الله في جميع الأمور[4].

تقديرُ الإيجاز بالحذف:

في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ إيجازٌ بالحذف، والتّقدير:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/151.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/151.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/108.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/410.

التّوكّلُ حاضرٌ في كلِّ أحوالِ العبدِ

فتوكّل على نصر اللّه ومعونته، قاله العزّ بن عبد السّلام في الإشارات[1]. وفي الاستغناء بالمذكور إطلاقٌ للتّوكّل، وتعميم له، وعدم تحديده بشأن المعركة؛ ليناسب مُختتم الآية الكريمة المُتضمّنة محبّته تعالى للمتوكّلين.

بلاغةُ الجملةِ القرآنيّة وقوّةُ دلالتِها:

اكتنازُ الجملةِ القرآنيّة جعلَها مثلًا سائرًا

خَرَجَ قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ مخرج المثل السّائر الّذي يتمثّل به النّاس للدّعوة إلى الاعتماد على اللّه، والتّوكّل عليه في الأعمال[2]. وفي ذلك ترسيخٌ للتّوكّل منهجًا مستقيمًا وثابتًا في كلِّ ما يعرِضُ من عمل، أو يسعى إليه.

جمال فنِّ التَّصديرِ:

في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ردّ كلمة ﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ على كلمة ﴿فَتَوَكَّلْ﴾، حيث وافقت كلمةُ ﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وهي آخر كلمة في الكلام، أوّلَ كلمة في صدره، وفيه وجه توكيد يناسب فعل التّوكّل.

براعة الإظهار في مقام الإضمار:

إدخالُ الرّوعةِ والمهابةِ في نفسِ المُخاطَبِ

مُقتَضَى الظّاهر يستدعي التّعبير بالمُضمَر بأن يُقال: (فتوكّل عليه إنّه يحبُّ المتوكّلين)، لكن وُضع الاسم الظّاهر، وهو لفظ الجلالة (اللّه) مَوضِع الضّمير؛ لإدخال المهابة في نفس المُخاطَب، نظرًا إلى أنّ لفظ الجلالة يجمع كُلَّ صفات كمال اللّه ﷻ، باعتباره اسماً علمًا للذّات العليّة، وما هو اسم علم للذّات يكون جامعاً لكلّ صفات الكمال.

بلاغة التّذييل بجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾:

لمَّا كان التّوكّلُ علامةَ صدقِ الإيمان، وفيه ملاحظةُ عظمة

(1) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/202.
(2) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/202.

اللّه وقدرته، واعتقاد الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه، والأدب العظيم معه الدّالّ على محبّة العبد ربّه فلذلك أحبّه اللّه[1]. مؤكّدًا حبّه تعالى للمتوكّلين بـ﴿إِنَّ﴾ المُؤكّدة، والجملة الاسميّة، وذكر الفاعل مرّتين، مرّة على أنّه مبتدأ، ومرّة على أنّه فاعل ﴿يُحِبُّ﴾، وإظهار اسمه الأعظم الجامع لكمال الصّفات في مَوطِن التّشريف والتّكريم، عناية بهذه الصّفة الحميدة وبالمتّصفين بها على الدّوام بقرينة التّعبير عنه بصيغة اسم الفاعل، المسبوق بالمضارع الدّالّ على الحال والاستقبال، والمبالغين في توكّلهم بأمارة صيغة التَّفعّل الّتي عبّر بها عن فعل التّوكّل، فهو حبّ دائم بدوام التّوكّل عليه، والمبالغة في ذلك.

توكيد الحبّ، وتشريفُ المحبوبين عنايةً بالصّفة والمتّصفين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/152.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»